أجراه : بلال ظاهر

ذكريات من بغداد، أحاديث عن ازدواجية اللغة وعن الصراع

سامي ميخائيل عن الحرب على العراق: اسرائيل تلعق لعابها من المتعة، الأجدى لها التزام الحياد

ولد الأديب سامي ميخائيل العام ١٩٢٦ في مدينة بغداد، وفيها أنهى دراسته الثانوية، وفي مرحلة الدراسة الثانوية كان نشيطاً في الحركات اليسارية، وعضواً في الحزب الشيوعي العراقي السري. وبسبب نشاطه السياسي، وخصوصاً المقالات التي كان ينشرها في الصحف اليسارية، أصدرت بحقه مذكرة توقيف، فوجد ملجأ له في ايران حيث بقي فيها عاماً كاملاً، هاجر بعدها، أي في العام ١٩٤٩، إلى اسرائيل.

فور وصوله الى اسرائيل انتسب للحزب الشيوعي الاسرائيلي، وعمل محرراً في صحيفة «الاتحاد» الحيفاوية، واختار لقلمه اسم «سمير مارد» ثم انسحب من الحزب، ووجد وظيفة في سلطة المياه حيث عمل مدة طويلة، درس خلالها موضوعي علم النفس والادب العربي في جامعة حيفا.

لم يصدر ميخائيل انتاجاً أدبياً بالعربية، وجميع رواياته صدرت بالعبرية، بينها روايات لأبناء الشبيبة، ولا تكاد رواية له تخلو من رموز تشير الى حنين الى بغداد، كما ان مواقفه السياسية تعد يسارية، خاصة ما يتعلق منها بالصراع الاسرائيلي ـ الفلسطيني.

.. الى اليوم يتكلم ميخائيل اللغة العربية، وعمل مؤخراً على ترجمة قصائد أغاني أم كلثوم لصالح شركة البث الاسرائيلية بالأقمار الاصطناعية، وعندما يتحدث مع العرب تختلط اللغتان العبرية والعربية في جمله.

حول ماضيه في العراق وفي بغداد تحديداً، حيث قوات الغزو على تخومها (الآن)، حول نظرته للموقف الإسرائيلي من الحرب على العراق.. وحول رؤيته لتطورات الصراع في الشرق الأوسط، أجرت معه «قضايا إسرائيلية» هذا الحوار:

قضايا اسرائيلية: كيف تشعر ازاء ما يحدث في العراق؟

ميخائيل: شعوري سيء الى أبعد حد. ماذا بوسعي ان اقول، ان شعوري سيء للغاية لكن احساسي وشعوري هو ان العراقي سيحظى بقيادة اخرى، ديمقراطية وعادلة، مثلما حلمنا انا وابناء جيلي، من اليهود والمسيحيين والمسلمين، في سنين الشباب، في حينه حلمنا بقيام دولة ديمقراطية وعادلة، تكون قادرة على جسر الهوة والفوارق بين القوميات والطوائف المختلفة الموجودة هناك، من اليهود والمسيحيين والمسلمين والاكراد، لقد كان هذا الحلم ايضا حلم فيصل الاول، الذي سعى فعلا لتحقيق ذلك. لكن سلسلة انقلابات عسكرية وقعت منذ الثلاثينيات وحتى الان، وخلالها كانت هناك جهود لاقامة دولة ديمقراطية، حتى ان الحزب الشيوعي العراقي في مطلع الاربعينيات وحتى بداية الخمسينيات كان الاقوى بين الاحزاب الشيوعية في الشرق الاوسط، وكدنا نلامس تحقيق حلمنا باقامة الديمقراطية في فترة «الوثبة» العام ١٩٤٨، عندما هربت حكومة الدمى التابعة للبريطانيين، لكن، لاسفي الشديد، اندلعت في هذه الفترة نفسها حرب العام ١٩٤٨ بين اسرائيل والدول العربية، وتحت غطاء المشاركة في الحرب تم تحطيم الحركة الشيوعية في العراق، وسوية مع ذلك تحطمت الاحلام، لكن، من ناحية ثانية فانني لن اقول ان صدام حسين وما يمثله هو في مركز اهتماماتي. انه يترأس نظاما دكتاتوريا صارما، وقد دفع الشعب العراقي الذي يرزح تحت هذا النظام الدكتاتوري ثمنا باهظا. انه يحكم بشكل مشابه لنظام الحكم في العهد المغولي. ونظام صدام حسين يختلف عن بقية الانظمة الموجودة في الدول العربية الاخرى، مثل النظام في سورية. فمثلا الرئيس السوري السابق، حافظ الاسد، كان رجل دولة، ولم يكن زعيم قبيلة، ولم تكن لديه القسوة القبلية حيث الانتصار من ناحيتها هو ابادة او الحاق هزيمة ماحقة بالقبيلة الاخرى.

الاسد انشأ في سورية مؤسسات دولة، والدولة هناك ليست تابعة لشخص واحد، كما هو الحال لدى صدام حسين. فعندما نتحدث عن صدام حسين يحضرك لويس الرابع عشر، بمعنى «انا الدولة والدولة انا»، وتقديس الشخص الذي هو فوق الشعب. لكن الاسد، مثلا، لم يكن فوق الشعب، بل كان انسانا عاديا. قد يكون هناك نقاش حول شكل النظام، لكنه شخص مختلف تماما. والرئيس السوري الحالي هو شخص حصل على تعليمه خارج المنطقة، وهناك تعرف على افكار متنورة. كذلك، الامر نفسه فيما يتعلق بملك الاردن، فرغم ان النظام في الاردن هو نوع من

الدكتاتورية، لكن الملك ينظر الى مملكته على انها دولة، ذات مؤسسات. وهو الامر ايضا بالنسبة لمصر، حيث يشعر مبارك ان مسؤولية الدولة ملقاة على كاهله، رغم ان النظام هناك ليس النظام الديمقراطي في اجلى صورة. لكن في العراق، فان الدولة هي صدام حسين وافراد عائلته والحاشية المقربة منه، ولهذا فانهم مخلصون له اكثر مما هم مخلصون للدولة، لانهم يعلمون بانهم اذا خانوه سيتم القضاء عليهم. اما اولئك المخلصون لملك الاردن او للاسد او لمبارك فانهم مخلصون للدولة اكثر من اخلاصهم للزعيم، رغم انهم مخلصون له من ناحية التوجهات والمصالح الآنية، لكنني اعتقد انهم سيضحون بحياتهم من اجل شعبهم ومن اجل الدولة، فهؤلاء وطنيون. هذا الفرق بين صدام حسين والاسد.

من جهة اخرى، فان عدوه هو قوة عسكرية مدمرة وهدامة، يبدو لي انها تشن حربا دينية، اكثر من كونها تشن حربا من اجل العدالة الاجتماعية او من اجل اقامة نظام ديمقراطي ونزع سلاح العراق.

ق. ا: تقصد حربا دينية مسيحية؟

ميخائيل: نعم.

– حربا صليبية؟

* شيء من هذا القبيل. لا ادري تماما اذا كانت هذه حربا صليبية، لكن على ما يبدو ان النقطة المفصلية كانت في ١١ ايلول، ورد الفعل الفوري بنظر الاميركيين كان يستوجب قمع الاسلام المقاتل

الذي يقف سدا منيعا امام سيطرة الغرب على العالم الاسلامي. وقد بدأ تنفيذ هذا المخطط في افغانستان، واليوم في العراق. ولكن الامر لن يتوقف عند العراق. لا اعلم... لقد قال الاسد ان هذا المخطط لن يتوقف عند العراق، والخطوة القادمة قد تكون ضد سورية او السودان. هذا غير مهم، ولكن هذه من نوع الحروب الامبريالية التي تهدف الى اقامة نظام يقوم بخدمة اميركا. انا شخصيا تمنيت لو ان الشعب العراقي نفسه يصل الى مرحلة يكون فيها قادرا على التغيير والعيش في ظل نظام يريده الشعب. ومن سيدفع الثمن الكبير من جراء هذه الحرب، وقد بدأ بدفع الثمن، هو الشعب العراقي، وليس صدام حسين. انني اشاهد القصف واجتياح جيوش التحالف، ولكن من يبقى في الخلف جريحا وعطشا وجائعا هو الشعب العراقي، الشعب ذاته الذي زعموا انهم قادمون لتحريره.

– ماذا تشعر حيال ذلك ، انت كيهودي من اصل عراقي؟

* انا متواصل للغاية مع الشعب العراقي. فهذا هو شعبي الاول، ولغته هي لغتي الام، وتقاليده هي تقاليدي، لقد امضينا في العراق اكثرمن ٢٥٠٠ عام، كجالية يهودية، وشربنا المياه المرة ذاتها التي شربها الشعب العراقي، كذلك شربنا المياه العذبة كما اننا ازدهرنا مثلما ازدهر الشعب العراقي، على مر اجيال عديدة، وعانينا من كل ما عانى منه العراقيون، اذا كان ذلك من المغول او البيزنطيين او الفرس. لذلك، فان ما يحدث في العراق ليس غريبا عني. بغداد هي المدينة التي ولدت فيها، والتي احببتها، والتي احفلت معي بالاعياد اليهودية، فقد كان اليهود ، في النصف الاول من القرن العشرين يشكلون ٢٠٪ من سكانها، وفي نهاية القرن الثامن عشر كان اليهود يشكلون ٣٠٪ من سكان بغداد. الجالية اليهودية في العراق كانت مزدهرة، وباستثناء فترات قصيرة بشكل عام كانت حياة اليهود في العراق طبيعية، واعتقد ان الجالية اليهودية البغدادية كانت حالة فريدة من نوعها من حيث مشاركة اليهود في السياسة الداخلية. فلم يكن اليهود نشطاء في الحركة الشيوعية السرية فحسب، وانما نشطوا في كافة الاحزاب.

– كان ذلك حتى العام ١٩٤٨؟

* نعم، بعد قيام دولة اسرائيل انقلبت الامور رأسا على عقب، واصبح الوجود اليهودي في العراق غير ممكن . من جهة، النظام الموالي لبريطانيا بقيادة نوري السعيد الذي سعى الى اخضاع الشعب العراقي لحلف بغداد، رأى بالحركة الشيوعية عدواً، وكون الجالية اليهودية في العراق نشطة جدا في الحركة الشيوعية، فقد رأى النظام بالجالية اليهودية عاملا لعدم الاستقرار في العراق. وعمليا فان من ادى الى هروب يهود العراق الى اسرائيل هو نظام نوري السعيد، اكثر مما فعلت الوكالة اليهودية. بن غوريون كان متخوفا للغاية من الهجرة الكبيرة لليهود القادمين من العراق، وقد قال لاحد نشطاء الحركة الصهيونية في بغداد: «لا تغرق اسرائيل بالعراقيين» . ومن ساهم في دفع يهود العراق للقدوم الى اسرائيل في تلك الفترة كان التعاون بين نجل نوري السعيد والوكالة اليهودية. حتى انه تم الافراج عن يهود من السجون وارغموهم على الصعود الى الطائرات التي جلبتهم الى اسرائيل، من دون رغبتهم. كذلك تم فصل اليهود من اماكن العمل، وتوقفوا عن منحهم تصاريح للاستيراد والتصدير، وعمليا فقد بقيت الجالية بدون سبل للعيش. فاذا كان الوضع الذي دفع يهود العراق الى الخروج، هو الدعاية الاسرائيلية لجذب اليهود اليها، من جهة، ورفسهم من جانب النظام الحاكم بقيادة نوري السعيد للخروج من العراق، من الجهة الاخرى.

–كيف ترى موقف اسرائيل من الحرب على العراق؟

* حسنا، هنا المشكلة، فاسرائيل تلعق لعابها من شدة الاستمتاع بالضربات التي توجهها قوات التحالف للعراق. وهي تنسى ان البريطانيين والاميركيين هم غرباء في هذه المنطقة، فيما العراق كانت ولا تزال وستبقى جارة اسرائيل. هذا التعبير عن الفرح، من جانب اسرائيل حيال الضربات الاميريكية والبريطانية، غير مناسبة، ولا يهم ما هو شكل النظام في العراق، الحماس الزائد من جانب المؤسسة الحاكمة في اسرائيل ليس في مكانه، وبالتأكيد انه سيبقي ترسبات لدى الشعب العراقي ولدى الشعوب العربية، الذين سيرون بذلك دليلا آخر على ان اسرائيل هي جسم غريب في الشرق الاوسط، يتحمس دائما للتواصل مع كل قوة اجنبية تأتي لمعاقبة او احتلال او تدمير دولة عربية. هذا الامر ليس في مصلحة اسرائيل. فبدلا من ان تقوم اسرائيل ببناء اجواء الثقة بيننا وبين الشعب العراقي، كان عليها على الاقل عدم ابداء الفرحة على هذا النحو، فقد بات ذلك يلحق الضرر حتى بالمصالح الاميركية. كان الاجدى باسرائيل ابداء التعاطف مع معاناة الشعب العراقي او على الاقل اتخاذ موقف حيادي.

النظام الموالي لبريطانيا بقيادة نوري السعيد الذي سعى الى اخضاع الشعب العراقي لحلف بغداد، رأى بالحركة الشيوعية عدواً، وكون الجالية اليهودية في العراق نشطة جدا في الحركة الشيوعية، فقد رأى النظام بالجالية اليهودية عاملا لعدم الاستقرار في العراق. وعمليا فان من ادى الى هروب يهود العراق الى اسرائيل هو نظام نوري السعيد، اكثر مما فعلت الوكالة اليهودية.

– كم كان عمرك عندما هاجرت الى اسرائيل؟

* وصلت الى اسرائيل في سن ٢٣ عاما. وكنت قد خرجت من العراق قبل ذلك بعام.

– هل بدأت كتابتك الادبية في العراق؟

* لقد كتبت ، بالاساس، مقالات سياسية. لم تكن هناك ادبيات ماركسية باللغة العربية في ذلك الوقت، عندما اقمنا الحركة السرية الشيوعية، ولذلك فقد عملت كثيرا في ترجمة ادبيات شيوعية، مقالات وكتب، من اللغة الانكليزية الى العربية. كذلك كنت عضو في هيئات تحرير صحف الحركة السرية والصحف الشرعية، في ذلك الحين كتبت قصصا قصيرة ولم انشرها. المثير في الامر، هو ان المصادر الثلاثة التي استمدينا منها الفكر الشيوعي، كانت الحزب الشيوعي اللبناني بزعامة خالد بكداش، والمنشورات باللغة الانكليزية القادمة من بريطانيا وجريدة «الاتحاد». ورغم كل القيود، فقد احضر جريدة «الاتحاد» الى بغداد صاحب حانوت كتب، كان محله يقع قبالة جامع مرجان في شارع الرشيد وسط بغداد . صاحب حانوت الكتب كان يهوديا اسمه داوود نيسيم، وقد باع جريدة «الاتحاد» بشكل شرعي.

–ماذا كانت هويتكم القومية في تلك الفترة؟

* كان لدينا وعي ديني تماما كما كان للمسيحيين وعي ديني، الا اننا كنا في نظر انفسنا عراقيين كاملين، جزءا من الشعب العراقي، فقد تحدثنا بالعربية وحلمنا بالعربية، تحدثت مع امي بالعربية، رغم ان ذلك كان يجري بلهجة عربية قديمة، حيث ان اللغة العربية تغيرت مع تقدم الزمن، لكن اليهود تحدثوا بلغة عربية قيل انها تلك التي سادت في فترة العباسيين . فهذه لغة المكان. كنا نفتخر بافتتاح كل مدرسة جديدة او مصنع جديد او جسر جديد. نتعامل مع انفسنا على اننا عراقيون، تماما مثلما المسيحيين والمسلمين. لم يكن التقسيم بين يهودي وعربي، التمييز الوحيد كان بين العرب والاكراد.

–هل تشعر انك ما زلت عربيا؟

* ان اقول اليوم انني عربي يعتبر اعلانا سياسيا. لكن، لا يمكنني ان انسى ان لغتي الام هي العربية، ولا يمكنني ان انسى ان الجزء الجميل والشاب يكمن في الفترة العربية من حياتي، فحتى قبل شهر، عندما توفيت والدتي ابنة المئة عام، تحدثت معها بالعربية فقط. والمضحك في الامر انه منذ قدومي تقريبا الى اسرائيل وحتى اليوم اسكن حيفا، ولكني فقدت مع الوقت اللهجة العراقية..

– في آخر رواية لك، «مياه تقبل مياها»، كتبت: «احب البحر الذي لم ينسه النهر الذي كبر على ضفافه».

* نعم، هذا صحيح، انه نهر دجلة. حيفا هي بديل لبغداد. ومثلما كان الامر في بغداد، القرابة بين ثلاثة اديان، فان ثمة امراً مشابهاً في حيفا، فليس صدفة انني ما زلت اسكن حيفا.

– هل مازلت مرتبطا باللغة العربية، هل تقرأ كتبا

بغداد ٢٠٠٣ تحت القصف.

بالعربية؟

*سوف اثبت لك ذلك (يغادر سامي ميخائيل الى احدى الغرف ويحضر كتابا قديما بالعربية بعنوان: «مقالات حول العراق»). فبين نشرة اخبار واخرى اقرأ كتبا بعطر جميل.

– لنعد الى السؤال، كيف هي علاقتك مع الثقافة العربية؟

* لقد ترجمت ثلاثية لنجيب محفوظ الى العبرية، قبل ان يحظى مؤلفها بجائزة نوبل. لقد كان هذا العمل اول ترجمة نجيب محفوظ الى لغة اجنبية. بدأت بهذا العمل في العام ١٩٨١ وانهيته في العام ١٩٨٥ او ٨٦. كذلك فانني استمع الى الاذاعات العربية، مثل «صوت العرب» من القاهرة. يكفيني قضاء ساعتين في القاهرة لاعود واشعر بانني عربي. حين اشارك في مؤتمرات عربية، فانا اسرائيلي وهناك مصريون وسوريون وفلسطينيون، ولكن بعد فترة قصيرة يمّحي ذلك، وتسقط الحواجز. نصفي يهودي اسرائيلي ونصفي الاخر عراقي يهودي. وكان هذا الشعور قويا عندما قدمت الى البلاد، حيث جلبت معي التقاليد العراقية، وكذلك لوني كلون العرب، حتى انني اميل الى السمرة اكثر من الفلسطينيين في وادي النسناس..

–جئت مباشرة الى حيفا؟

* لدى وصولي الى البلاد سكنت في يافا، وكان القسم العربي فيها منطقة عسكرية مغلقة، محاطة بالاسلاك الشائكة، وهناك سكنت في بيت عربي لدى شيخ يافي عربي، وقد شعرت بالامان ونمت بهدوء، وكأن الحرب مع ابناء شعبي غير موجودة. وبعد الخدمة العسكرية جئت الى حيفا، الى وادي النسناس. وكان الناس في الحي ينسون ، احيانا انني يهودي ، وانا بدوري كنت انسى احيانا انني اصبحت اسرائيليا. الى درجة ان الجيران بدأوا بالبحث عن «بنت حلال» من اجلي. ولكن بعد خمسين عاما، وخلال ذلك ولد ابنائي، تطورت طبعا اللغة العبرية، فالفلسطينيون انفسهم في اسرائيل اصبح نصف كلامهم بالعبرية. ورويدا رويدا اصبح الماضي ماضيا والحاضر حاضرا.

– متى بدأت العمل في جريدة «الاتحاد»؟

* عملت خمس سنوات في جريدة «الاتحاد»، من ١٩٥١ حتى ١٩٥٥، وقد تركت الجريدة بعد ان اصبت بخيبة امل من الشيوعية، بعد انكشاف الجرائم التي ارتكبها ستالين رغم انني كنت محترفا حزبيا، واعتشت من الراتب الذي تقاضيته من الحزب الشيوعي.

– وكتبت في «الاتحاد» تحت اسم سمير مارد؟

* نعم. لماذا اخترت اسم سمير مارد؟ لقد كنت معجبا باميل حبيبي وغيره من الكتاب الشيوعيين عندما كنت ما زلت في بغداد، وان اكتب في «الاتحاد» تحت اسم... لقد خجلت.

–ما هو اسمك الحقيقي؟

*صالح منشية. اما الاسم سامي ميخائيل، فقد تقمصته عندما وصلت الى ايران قادما من العراق في العام ١٩٤٨. فقد اشتريت هوية رجل ميت من اصل عربي يدعى سامي ميخائيل. وكان شعوري جيدا بهذا الاسم. فقد خرجت من العراق هاربا، ولم تكن بحوزتي اية وثيقة او مستندات ثبوتية. وقد خجلت ان اكتب في «الاتحاد» باسمي، سامي ميخائيل، واخترت ان اكتب تحت اسم مستعار. وكتبت تحت اسم سمير مارد، واخوتي ينادونني حتى يومنا هذا «سمير». والدتي كانت تناديني «سمير». اولئك الذين لا يعرفوني جيدا ينادوني «سامي ميخائيل».

–بودي العودة الى الفترة التي تواجدت خلالها في العراق. فقد كان هناك نشطاء صهيونيون، احد البارزين بينهم كان شلومو هيلل. وقد كانت هناك احاديث حول وضع نشطاء صهاينة قنابل

–بودي العودة الى الفترة التي تواجدت خلالها في العراق، فقد كان هناك نشطاء صهيونيون، احد البارزين بينهم كان شلومو هيلل. وقد كانت هناك احاديث حول وضع نشطاء صهاينة قنابل في كنس يهودية ببغداد، من اجل دفع اليهود للهجرة الى اسرائيل. ماذا تعرف عن هذه القضية؟ – لكن تم تنجير كنس؟

*نعم. تم تنجير كنس. ثمة نقاش حول من القى قنابل نحو الكنس، ولكن لا توجد اثباتات. ولكن اسأل كل عراقي وسيجيبك بان اعضاء الحركة الصهيونية هم الذين القوا القنابل. ليس العراقيين العرب، بل اليهود، من الذين وصلوا الى اسرائيل، اولئك سيجيبون بان نشطاء الحركة الصهيونية هم الذين القوا القنابل على الكنس اليهودية في بغداد. والسبب هو، عندما وصل اوائل اليهود العراقيين الى اسرائيل ورأوا حقيقة الرومانسية الموعودة في ان الحب ينتظرهم هنا والعمل بانتظارهم ايضا وان هذه البلاد هي جنة عدن، فإذا جنة عدن هذه هي الخيام والاكواخ البائسة و«المعبروت»، بدأوا بارسال الرسائل الى العراق التي تشتنبئ بان الوضع في اسرائيل صعب للغاية

في كنس يهودية ببغداد، من اجل دفع اليهود للهجرة الى اسرائيل. ماذا تعرف عن هذه القضية؟

*لا اعرف.

– لكن تم تفجير كنس؟

*نعم. تم تفجير كنس. ثمة نقاش حول من القى قنابل نحو الكنس، ولكن لا توجد اثباتات. ولكن اسأل كل عراقي وسيجيبك بان اعضاء الحركة الصهيونية هم الذين القوا القنابل. ليس العراقيين العرب، بل اليهود، من الذين وصلوا الى اسرائيل، اولئك سيجيبون بان نشطاء الحركة الصهيونية هم الذين القوا القنابل على الكنس اليهودية في بغداد. والسبب هو، عندما وصل اوائل اليهود العراقيين الى اسرائيل ورأوا حقيقة الرومانسية الموعودة في ان الحب ينتظرهم هنا والعمل بانتظارهم ايضا وان هذه البلاد هي جنة عدن، فإذا جنة عدن هذه هي الخيام والاكواخ البائسة و«المعبروت»، بدأوا بارسال الرسائل الى العراق التي تنبئ بان الوضع في اسرائيل صعب للغاية ولا يوجد عمل، والناس تسكن في الخيام، فتوقف يهود العراق عن مطالبتهم السلطات العراقية بـ «اسقاط الجنسية». إذ صدر قانون في العراق يسمح لليهود بالهرب، وبذلك تسقط الجنسية العراقية عنهم، ويتم احتجاز الاملاك، ويسمح لك بالصعود الى الطائرة الى اسرائيل. ولنعد الى قضية وضع القنابل في الكنس. هذه «لطخة». ولكن هنا في اسرائيل يعيدون كتابة التاريخ من جديد. وقبل البدء بالقاء القنابل على الكنس بسنة، لم يكن هناك اي قانون في العراق ضد الصهيونية، رغم الحديث عن الحركة الصهيونية السرية. وقد كان هذا امرا طبيعيا، اذ لم يكن الصهاينة معادين للنظام في العراق، وانما ارادوا مغادرة العراق فحسب، ولم يشكلوا تهديدا للنظام العراقي، بل على العكس، اذ راى النظام العراقي بالحركة الصهيونية حليفا ضد الحركة الشيوعية، فكل صهيوني اصبح بشكل تلقائي غير شيوعي، لهذا لم يتم سن قانون ضد الحركة الصهيونية حتى اندلاع حرب ١٩٤٨، عندها، وبفضل الحزب الشيوعي ، تم الاعلان عن الصهيونية كحركة معادية.

–في مرحلة معينة توقفت عن الكتابة بالعربية. هل اتخذت قرارا بهذا الشأن؟

* الحقيقة هي انني عندما تركت الحزب الشيوعي لم افعل ذلك من منطلق معارضة خط الحزب الشيوعي الاسرائيلي، وانما بسبب الكشف عن الجرائم التي ارتكبها ستالين في الاتحاد السوفييتي، وقد اعلنت ذلك في حينه. ولكن، في ذلك الوقت، ضغطت علي السلطات الاسرائيلية بان اعلن عن انسحابي من الحزب. لو كنت عربيا لبقيت في الحزب الشيوعي، اذ ان الحزب الشيوعي في حينه كان الحزب الوحيد الذي دافع عن الاقلية العربية. ولم يكن امام العربي في اسرائيل، في ذلك الوقت، اية امكانية في الدفاع عن نفسه سوى من خلال الحزب الشيوعي. ولذلك ، انا كشخص جاء من العراق الى هنا كان لدي نقاش مع موسكو وليس مع الحزب الشيوعي الاسرائيلي، من الناحية المبدئية. وقد انسحبت من الحزب بشكل بطيء. ولكن في ذلك الوقت، اذا لم تكن الى جانب الحزب كنت عدوه. فمن جهة اعتبروني رجل المؤسسةالحاكمة، ومن جهة ثانية، ولانني رفضت الخروج باعلان ضد الحزب الشيوعي، اعتبرتني السلطات الاسرائيلية شيوعيا متسترا، ولهذا تمت مهاجمتي من كلا الجانبين. فتوقفت عن الكتابة بالعربية، وقلت لنفسي: من سيقرأ ما اكتبه باللغة العربية، وتساءلت ايضا لماذا علي ان اواصل الكتابة للدرج مثل سمير نقاش، وفي ذلك الحين لم اكن اجيد اللغة العبرية وبدأت اعمل في سلطة المياه، وبعد مرور ١٥ سنة وجدت نفسي ابدأ الكتابة من جديد، ولكن هذه المرة باللغة العبرية، وكان عنوان الرواية الاولى «متساوون ومتساوون اكثر» وقد تمحورت حول الفوارق بين اليهود الشرقيين والغربيين في المجتمع الاسرائيلي، وكانت الرواية الثانية حول فترة الحرب العالمية الثانية في العراق، والرواية الثالثة حول العلاقات بين اليهود والعرب في اسرائيل ، وكانت المرة الاولى التي يتم فيها طرح شخصية العربي في الادب الاسرائيلي، ولم تكن هذه شخصية العربي البسيط او الفلاح، بل العربي المثقف، ولم تكن شخصية العربي في الرواية ثانوية بل كانت الشخصية في مركز احداث الرواية. ولحظي انه في تلك الفترة، كان لدى القراء اليهود تعطش كبير للاطلاع على عالم الآخر، على العالم العربي، حيث اصبحت جميع الروايات التي كتبتها مختارة.

– فيما يتعلق بالقراءة، هل تشعر ان القراء في اسرائيل اصبحوا اقل اقبالا على القراءة، وبالتالي شراء الكتب وخصوصا الروايات الادبية؟.

* نعم، هذا صحيح. انني المس ذلك، ما يحصل في العقد الاخير في اسرائيل من هذه الناحية بالامكان اعتباره كارثة. فقد تطور في المجتمع الاسرائيلي ما اسميه بـ «اللهاث وراء اراء الجمهور». فبعد الصراع المتواصل بين الشعبين الفلسطيني

والاسرائيلي، وبسبب سقوط عدد كبير للغاية من الضحايا، من كلا الجانبين، وانعدام الامن، اصبح الشعبان اكثر تطرفا من قيادتهما. ومع تصاعد هذه الكراهية التي نمت بين ابناء الشعبين، حدث لدى الاسرائيليين والفلسطينيين، ضعف، او ان هذه القيادة اصبحت في ازمة. ومن الناحية العملية انجرفت القيادة، من كلا الجانبين، وراء الجماهير، واخذت تخشى كل واحدة من القيادتين من جماهيرها، من شعبها، اكثر مما تخشى من الجانب الآخر. ومثال على ذلك اعلان ارئيل شارون انه لن يتحدث الى ياسر عرفات، الذي هو ألد اعدائه، ولكن في الليالي يقوم بارسال ابنه للحديث مع ياسر عرفات. وهذا يعني ان القيادة تخشى من الرأي العام بين شعبها، ما يعني ان الشارع، او السوق، هو الذي يملي السياسة التي تنتهجها القيادة. واول من اتبع هذا النهج كان بنيامين نتنياهو، الذي ذهب الى الاسواق، ولم يزر اية جامعة، عندما كان رئيسا للحكومة. وهذا، بالتأكيد ادى الى انجراف الرأي العام الى معسكر اليمين. وازاء هذا الوضع اشعر، بين يوم وآخر، انني اصبحت في عزلة.

– وما هو الحل للصراع برأيك؟

* كما هو الحال في كل صراع بين طرفين، فاما العيش معا او الموت معا. واذا اردت النظر الى الامور بشكل واسع ، فان كلا الشعبين فقدا صوابهما. كلا الشعبين اصبحا «العوبة»، فالصراع يصب في مصلحة كافة الانظمة في الشرق الاوسط. فبدلا من ان تناضل الشعوب في مصر والاردن وسورية من اجل تغيير الانظمة فانهم منشغلون بحرق الاعلام الاسرائيلية. وقد تطور في العالم العربي نوع من اللاسامية المعادية للفلسطينيين. الجميع يحبون فلسطين ولكنهم لا يحبون الفلسطينيين. وبسبب النضال المتواصل اصبح الفلسطيني يملك شخصية مبادرة ومسؤولة ومثقفة. وحلمي هو ان يتوصل الطرفان، الاسرائيلي والفلسطيني، الى نقطة وتتملكهم فيها العقلانية، وحل الصراع بواسطة انشاء الفدرالية تكون محايدة عن كل نزاعات الشرق الاوسط. وان تكون هذه الفدرالية ملجأ لكل من يطلب اللجوء السياسي . بمعنى ان تكون هذه الفدرالية مثل سويسرا الاوروبية.

–وهل تسمح القضية الديمقراطية بذلك؟

* هذه قضية صعبة للغاية وتنطوي على اشكالية كبيرة. الكثافة السكانية في اسرائيل كبيرة للغاية، والشوارع مزدحمة ، وبسبب النزاع الايديولوجي بدأت منافسة بين الارحام ومن شأن ذلك ان يؤدي الى دمار فحسب. ومثل هذه المنافسة في منطقة داخل الشرق الاوسط، التي تتعطش للمياه والارض، من شأنها ان تحولنا في الفترة القريبة القادمة الى هونغ كونغ، بمعنى ان يصبح الهواء ساما، كما ان المياه تكاد تكون مسممة بسبب الازدحام السكاني.

– وما هو الحل اذا؟

*الحل قبل كل شيء يكمن في وقف هجرة اليهود الى اسرائيل، والتركز بعدم انجاب الاولاد اكثر من اللزوم. لان هذا سيؤدي الى كارثة بيئية، من ناحية الهواء والماء والارض. هذه المعادلة تم تجاوزها منذ زمن بعيد. ويتوجب اتخاذ كافة الوسائل من اجل عدم زيادة الكثافة السكانية بشكل كبير، وربما يتوجب سن قوانين مثلما جرى في الصين، ليتسنى ان يكون ابناء الجيل القادم مثقفين ويتمتعون بصحة جيدة وان تكون حياتهم مزدهرة.

ولكن هناك جانب آخر، وهو ان مجرد كون الفلسطينيين شعبا مثقفا يقربهم من الاسرائيليين. واورد هنا مثال على مدى ثقافة واستعداد الفلسطينيين لاستيعاب العلوم المختلفة. بعد حرب ٦٧ اخترعوا في اسرائيل طريقة حديثة للري، وبعد فترة وجيزة شاهدت مزارعين فلسطينيين يستعملون هذا الاختراع الجديد. وبالمقابل فان الفلاح المصري مثلا، لا يزال يحضر الطمي من ضفاف النيل الى ارضه لتزداد خصوبتها، على الرغم من ان هناك الاسمدة الكيماوية، الانسان الفلسطيني يختلف عن الآخرين وهذا يمنح الامل.

–انت اليوم رئيس جميعة حقوق المواطن في اسرائيل لماذا تم اختيارك انت بالذات؟

* حتى اليوم كان يتم تعيين قانونيين في هذا المنصب، وعندما توجهت ادارة الجمعية الي، وكانت هذه المرة الاولى التي يتوجهون فيها الى اديب، رأيت بذلك شهادة تقدير لي، وسبب توجههم الي، جاء على خلفية مواقفي حيال العدالة الاجتماعية وتطلعاتي التي اكتسبتها عندما كنت في العراق، وان للعرب الحق بالحصول على حقوق كاملة. فجزء كبير من نشاط «جمعية حقوق المواطن» يكمن في الدفاع عن حقوق العرب الفلسطينيين داخل اسرائيل وفي الاراضي الفلسطينية. اعتقد ان هذا ما دفعهم الى اختياري وعندما طرحوا عليّ فكرة ترأس الجمعية وافقت على الفور.